

كلمة أصدقاء الفقيه

الدكتور رفيق جويجاني

أيها الحفل الكريم

دعا مجمع اللغة العربية الرفيع الشأن ، وآزرته مكتبة الأسد هذه التي أصبحت تتسّم دوراً اجتماعياً وفكرياً مرموقاً في هذا الوطن الخالد ، لتأبين علم من أعلام العلم والمعرفة ، وقدوة مثلى في العمل الصالح الصادق المثمر ، المهندس وجيه السّمّان ، الذي لبّى نداء ربّه في الثامن عشر من شهر صفر ١٤١٣هـ (١٧ آب ١٩٩٢م) ، فكان يوم حزن بالغ لأهله وأحبائه ومعارفه ، بل يوم حسرة للوطن برمته ، الوطن الذي أعطاه الفقيه الراحل ، كلّ ما ملك من عقل وجهد وإيثار ، ليؤدي قسطاً في إغناء تراثه ، ويسهم في نهضته العلمية والتقنية ، وثورته الصناعية التنمويّة ، وتطوّره الفكري اليافع .

إنما نجتمع اليوم شاكرين لمجمع اللغة العربية هذه البادرة المحمّلة بالمعاني السامية ، بعد هذا الرزء ، ليحلّ محلّ الدموع - ولم ترقأ بعد - استذكاراً لما خلف الفقيه من مآثر ، وإنهاضاً للهمم كي تتأسي مثاله النموذجي ، وتدبّراً للفراغ الكبير الذي أرّثه افتقادنا قلبه الكبير ، كيف الحيلة في ملئه .

* * *

- ١١ -

ذلكم فتى يقبل بكلّ جوارحه على تلقف العلوم والرياضيات بنهم وشغف ، يُنضح بالجهد الساهر نبوغاً مبكراً ، يؤهّله لمتابعة الدراسات العالية في أشهر المعاهد الهندسية الفرنسيّة . واذ يعود للوطن بعد أن يقطع مراحل الإعداد لتستّم الخدمة العامّة ، يخرّج الفوج تلو الفوج من الطلاب المتمكنين من العلوم ، بفضل تدرّسه وتوجيهه ورعايته ، يرفد بهم صفوف العاملين بنجاح في بناء المجتمع والدولة العصريّة .

ثمّ ينشر ، في كلية الهندسة ، في الشهباء ، أستاذاً ومن بعد عميداً ، حبّ الهندسة ورغبة التضلع بها ، لسدّ الحاجة الماسّة للأمة الناشئة ، المفتقرة إلى أطر الخبرة في العلوم والفنون ، في الكهرباء والعمارة ، في الفيزياء بتفرعاتها ومن ثمّ يقبل مواجهة تحديات النهضة العمرانية ، فينشر النور بنشره الكهرباء ، بعزم جاد ناشط لا يقتر ، من منصبه الحساس ، مديراً عاماً لمؤسسة الكهرباء .

وفي هذا التدرّج من سلك التعليم إلى سلك العمل يتسّم الآن وقد بلغ سنّ الشباب الفاعل الناضج المبدع أهمّ المناصب في ثورة التنمية العارمة ، التي بدأت تنقل سورية في مجال الصناعة والزراعة ، والنفط وتخزين المياه ، ومشاريع الريّ الكبرى ؛ من حيز الأمانة ، إلى واقع التحقيق . واذ يصبح وزيراً للصناعة في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة آنذاك يتّسم عهد وزارته وإسهامه الغنيّ ، باكتشافه النفط واستثماره ، تصفيته وتمديد أنابيبه ، تأسيس مستودعاته وتنظيم تسويقه ، كما يتّسم بإشادة الصناعات الكبرى كالزجاج والورق والكبريت ، وتوسيع الصناعات القائمة كالمنتجات الزراعيّة والنسيجيّة والاسمنت ، والمضّيّ قدماً في تأسيس الصناعات المتفرعة عن النفط .

كلُّ يوم من أيام فقيدنا مملوء بجلائل الأعمال ، وعمق التأمّلات الروحية معاً . لتراه في مطلع الفجر متعبداً ، يتلو بحشوع وتمعن ويقظة في الفكر والقلب والحسّ ، آيات القرآن الكريم متدبراً معانيها يحفظ منها الروائع والحكم - وكلّها ، والأحاديث الشريفة ترفدها ، حكم وروائع . ويتملاً بقدر ما يسمح الوقت الطائر ، من الآداب العربية صفوتها وخالص شهدها .

ثمّ تراه وقد تقدّم الصباح عاملاً غزير النشاط مقداماً مكافحاً ليفي بما أخذ على نفسه أن ينجز ، في جوّ من الغبطة ، والنشوة بلذة نقل الفكر المستنير من مجال النظر إلى حيزّ الواقع الخيّر المعطاء، وتوأم أدوات التنفيذ مع برامج التخطيط وخطوط التصميم .

وليكن في علمك أنّ ما نسّميه وقت الراحة أو المتعة الاجتماعية في المساء ، مبذول جلّه في المطالعة والترجمة والتأليف : المطالعة الحثيثة غير المنقطعة لما ينشر عن أحدث ما استجدّ من مستكشفات علمية وتقنية تطبيقية في المواصلات والاليكترونيات والحواسب ، ونقل آخر منجزات الفكر الغربي في هذه المخترعات التي ثورت وسائل التخاطب والتواصل وميدان الأعمال على نحو من الشمول والاتساع والتسارع مما لم تألف الإنسانية له فيما مضى مثيلاً .

ثمّ الترجمة : آية إرادة قويّة ، واندفاع أصيل لا عارض ، وتوطين مطلق للنفس على الأداء كأحسن ما يكون الأداء ، مهما كان صعب المنال ، شاقّ المسار ، تكمن كلها وراء قبول تحديّ الترجمة إلى العربية ، لمؤلفات صعبة ، كمؤلفات العالم الفرنسي الفدّ ، Albert Ducrocq ، مؤلفه في العناصر ، مؤلفه في المادة السيريرية والكون ، تعبيراً عن الماكنات

التقنية التي زوّدها الإنسان بمتلقفات جعلتها وكأن لها جسماً وحواساً وقدرة على التنظيم والاستنتاج ، ومؤلفه عن جسم الإنسان العجيب ، وذلك على بعد الهوة ما بين التقدم اللغوي الذي ساير تقدم العلوم والتطبيقات في الغرب والجمود الذي ران على العربية قرونًا .

انظر إلى أعين بحاثنا الدؤوب الصابر ، تتيه وتحمّر ، في حمأة المعاجم العامة والمتخصصة ، والابحاث المنهجية في الطريقة ، والدراسات الرياضية والتكنولوجية العويصة ، بحثاً عن مصطلح يفني معنى المصطلح الغربي ، أو يفصح على وجه الدقة عن واقع معادلة أو نظرية أو محاكمة . وما كلّ هذا الصبر والعناء لغرض شهرة أو نفع مادّي ، أو تباه في سلمّ المكانة الاجتماعية ، فقد ذهب التواضع والإيثار في سبيل المصلحة العامة بفقيدنا إلى أن كاد حتّى الخُلصُ من صحابه ، يعدّ الإفراط فيه مأخذاً ، إذ قد يكون عاملاً على ضعف التنبيه إلى هذا الإنتاج الثر الزاخر ، وهو إنتاج ذو ضرورات حيوية لتعزيز أسباب النهضة ؛ وفي سبيل ذلك يهجر الراحة ، والخلود إلى الدعة ، حتى في أيام التقاعد ، التي يفترض فيها بالفارس أن يترجّل ، لينال قسطاً من راحة الجسد والتسلي عن الهموم بما لم يقبض له أن يناله وهو في غمرات النضال .

وقل مثل ذلك في تصدّي فقيدنا لأحدث المؤلفات بالانكليزية عن الطاقة لويلسون ، والحاسبات في أعمالها لكلاارك ، والمجلدين الضخمين في الميكرو - اليكترونيات - اليكترونيات الدقة ل Mill MAN وروبرت اوبنهايم والقنبلة الذرية للعالم الفرنسي Michel Rouse ويتكلّل كل ذلك بترجمة مبادئ الفيزياء الحديثة لجيمس ريتشاردز ، مبسّطة موضحة معلّله ، بلغة عربية بيّنة، توضع منارة تستنير بها الجامعات العربية وتمّ الترجمة بجهد مشترك يشاطر فيه الفقيه جهود أستاذنا اللّامع ، الدكتور عبد الرزاق قدورة الذي

يحدثنا اليوم عن خصال الفقيه كما عرفه طالباً وزميلاً وجهود العالم الموسوعي الدكتور أحمد محمود الحصري .

أمّا في التّأليف فهاهوذا يودع عصارة ما فقه ونشر واستنتج واستحدث ، جزءاً منه في مؤلفه عن قصة الذرة وكانت موضوع الساعة المحاط بالطلاسم فسَلَط عليه الأنوار الكشّافة وجزءاً آخر في الصواريخ والأقمار الصناعية ، وهي حديث الساعة فينقل إلى المحسوس ما كان يظنّ في الموضوع من مغيبات . هذا عدا عن عشرات المحاضرات والمنشورات والمقالات والكتب المدرسيّة في العلوم والاجتماعيات والآداب .

* * *

يقف البحاثة ، كما تقف دوائر المعرفة في بلاد العربيّة مذهولة أمام هذا الجهد الجبار ، فترشح الفقيه لمنابرها ومجامعها ، وتكل إليه الأمم المتحدة ترجمة أكثر وثائقها صعوبة في المواصلات وتقنياتها ومؤتمراتها ومقرراتها ، ويناديه مجمع لغتنا العربيّة العتيد ، ليتبوأ عن جدارة ، عضويته ، فيلبي طيعاً نداءه ، معتبراً هذه اللفتة في الحقيقة تكريماً لنزعة التحديث في اللغة العربيّة ، لغة التنزيل الكريم والثقة بإمكاناتها الواسعة وقدرتها على التلاؤم مع النهضة المعاصرة والإيمان بمستقبلها :

وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آي له وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله وتنسيق ألفاظ لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدرّ كامن فهل سألوا الغوّاص عن صدقاتي
ولقد غاص الفقيه لجج هذا البحر بدأب وعناد واستخرج منه أعزّ
الأصداف .

* * *

وقد يجنح خيال من لم يعرف الفقيه إلى التصور أنه أمام شخصية فكرية تؤثر العزلة والبعد عن الناس ، والانكماش في أبراجها العاجية ، ووجه الروعة في حقيقة الأمر أنه كان على العكس تماماً ، كان مع كل هذا النشاط ، أنيساً لجلسائه الكثر ، وفيماً لأصحابه من الأخيار ، طلي الحديث ، يعززه ببديهة رائعة وحضور ذهن فذ ، بالشواهد الشعرية والقطع المنثورة من روائع ما قال العرب وكتب الأعراب ، لا على وجه التعميم مما يصلح لكل مناسبة ، بل على وجه إيراد الشاهد الذي يقع في موقعه الصحيح ، على ما يطرق من موضوع متخصص ، أو ما يعرض من روح النكتة الذكية والدعابة المستملحة ، فلقد كان تضلعه بالآداب العربية والاجنبية مدعاة للتعجب ، كيف يجد الفسحة لاستيعاب هذه الناحية الجمالية من حياة الإنسان . ولن تعجب إذا وقفت على حوافز هذه الشخصية المترعة بالمحبة الإنسانية والسماحة والبشر ، تغذوها الوشائج الروحية ، ولكم قطع حديثه ليؤدي في أوقاتها صلاة المغرب أو العشاء لا بحس من الالتزام الديني - الروحي وحسب ، بل إفصاحاً عن هذه النظرة العميقة للحياة على أنها اتحاد يصهر الجسم والروح معاً، ويجمع سعي الدنيا إلى العمل للآخرة .

وما تأخذ بلبك في سيرته مكرمة قدر ما تأخذ به مكرمة الإحسان لديه ، عفويّاً يأتي ، سمحاً ، غيريّاً ، غير مبتغ جزاء ولا شكوراً ، حتى إذا أتاه طالب سؤال أو ناشد قرض أو استعارة أو توصية ليخرج من لقائه متمثلاً بالشاعر الذي قال في كرم أحد الخلفاء :

رأه ، إذا ما جئتسه ، مهلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
يا أبا عصام . فأين أين تلك السوانح من الأمسيات العزيزة تقضيها

بصحبتك النخبة من المتعلمين والعلماء والمتأديين والأدباء ، والمهندسين والأطباء ، فتبادلون الشجون وأطراف الحديث الشيق ، في المجتمع والعلم واللغة ، في الحكم والعظات ، في عبر التاريخ وطرائف الفلك في الظرف وحسن اللفتة . لقد كانت نوراً بنور وجهك ، نوراً على نور بمعرفتك . وحميم صداقتك وعميق انسانيته . مناسبات تؤرخ وتبقى خالدة في الذاكرة ، مضيئة بكرم خلُقك وحسن وفادتك وعطفك وحدبك . وأنا يا أبا عصام ، على مثل ما قال النبي الأعظم عليه السلام في ابنه ، وأنت الابن البار لهذه الأمة : وأنا على فراقك لمخزونون .

أما بعد فيا أيها الأصدقاء الذين أحبوا الفقيد وأحبهم ، فإنّ وجهه السّمّان شخصية عزيزة نادرة قيمة ، رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية ، دخلت في عباده ، وأنّ سعيها سوف يرى ، ثم تجزاه الجزاء الأوفى ، وستدخل على ما نضرع إليه تعالى جنته الفسيحة بعد أن خلّفت على هذه الأرض المباركة ذرية طيبة ، وذكرأ حميداً تلهج به الألسن ، وتراثاً كبيراً تستنير به العقول وتستنجز منافع العزمات ، وأمثلة حسنة حريّ بالجيل الصاعد أن يستهدي بمعالها، ومسلكاً ، متفتحاً دنيوياً، منتشياً روحياً : وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك . ولقد ابتغيت الآخرة عن عقيدة وشغف ، وأديت نصيبك من الدنيا ، عملاً صالحاً خصباً تجني ثمراته اليانعة أمة متعطشة للنهضة والمجد ، وأحسنت على خير ما يكون الإحسان وحين عرتك الهموم ونالت منك الأحداث بغيرها كنت تتمثل بقوله تعالى في خطاب لقمان لابنه : ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور ﴾ وإنّ المؤمن إيمانك لينظر إلى

المصائب من باب البلواء والامتحان لصلابة إيمانه وصحة صبره ، وجود قلبه .

ولعل هذا الإرث القيم هو الذي يعزي أهل الفقيد حرماً وبنات وأبناء وحفدة وأحفاداً ، وأخوات وإخواناً ، وأقرباء وأنسباء عن مصابهم الجسيم . فلهم جميعاً أحرّ العزاء وأصدق المحبة ، وأخلص الدعاء والمشاركة الحميمة المشاركة التي قال فيها شعر الشاعر المحزون :

سألتنيهِ رثاء خذه من كبدي لا يؤخذ الشيء إلا من مصادره